

٢١- درس في بيان المناسك التي تؤدي في أيام التشريق

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد الصادق الأمين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

هذه الأيام المباركات، التي هي يوم عيد النحر، يوم الحج الأكبر، وأيام التشريق الثلاثة، اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، هذه أيام مباركات، أيام معدودات، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]. هي هذه الأيام.

والتي يشرع فيها أداء أغلب مناسك الحج، فيبدأ فيها رمي جمرة العقبة يوم العيد، ثم ذبح الهدي لمن يريد أن يذبح هدياً تطوعاً، أو هدياً واجباً لحج أو عمرة، إلا أن هدي التطوع إنما يفعله المسلم من غير إلزام، وأما هدي التمتع والقران فهو هدي واجب ونسك من مناسك الحج، وهناك نوع ثالث من أنواع الهدي وهو: هدي الجبران، وهو الذي يذبح لترك واجب من واجبات الحج، أو فعل محظور من محظورات الإحرام، وهذا الأخير ليس له وقت، بل وقته يبدأ من حدوث سببه.

والأعمال التي تعمل في هذه الأيام هي:

رمي جمرة العقبة، وهي من أول ما يقدم الحاج إلى منى، يبدأ برمي جمرة العقبة، لأنها تحية منى، ثم بعد ذلك يذبح هدياً إن كان معه هدي، هذا هو الأفضل، ثم بعد ذلك يحلق رأسه أو يقصر، ثم يتحلل من إحرامه ويلبس ثيابه ويتطيب بعد الرمي والحلق أو التقصير، وإن نزل إلى مكة وطاف طواف الإفاضة في يوم العيد وسعى بعده سعي الحج فهذا أفضل، وإن أخر الطواف إلى ما بعد ذلك فالوقت موسع - والله الحمد -.

وأيام التشريق من أعمالها أيضاً أن المسلم يبيت ليلاتها في منى، وهذا واجب

من واجبات الحج، ويقيم نهارها هذا أفضل أنه يمضي الليل والنهار في منى، لكن ليلاً واجب ونهارها مستحب، ويقاؤه في منى هذه الأيام أفضل من أن يذهب إلى مكة إلا لطواف الإفاضة والسعي، وأما طواف التطوع فالأفضل أن يبقى في منى ولا يذهب؛ لأن النبي ﷺ بقي فيها الليل والنهار إلى أن أكمل أربعة الأيام، فالبقاء فيها أفضل وهو عبادة.

وكذلك مما يشرع فيها رمي الجمار أيام التشريق، ثلاث الجمرات الصغرى ثم الوسطى ثم الكبرى، كل جمرة بسبع حصيات متعاقبات، ورمي الجمار يبدأ من زوال الشمس في اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر بدخول وقت الظهر، ويستمر إلى الغروب، وإن احتاج إلى الرمي في الليل بعد المغرب أو بعد العشاء، خصوصاً في الزحام والخطر فلا بأس أن يرمي في المساء، ولو بعد غروب الشمس، أو بعد صلاة العشاء، من أجل أن يتفادى المسلم الزحام والخطر ويكون عنده وقت في تحين الفرص.

ومن أحكام أيام التشريق: ذبح الهدي، ويبدأ من صلاة العيد يوم النحر، أو مقدارها ويمتد إلى غروب الشمس في اليوم الثالث عشر، فإذا غربت الشمس في هذا اليوم انتهى وقت الذبح.

ومن أحكام أيام التشريق ما ذكر الله ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

والتعجل معناه: أنه إذا أراد في اليوم الثاني عشر أن يرمي الجمرات بعد الظهر، أو بعد العصر، ويرحل من منى قبل غروب الشمس فقد تعجل في يومين، فإن أراد أن يسافر يمر بالبيت ويطوف للوداع ويسافر، وإن أراد أن يقيم في مكة أو حواليتها فلا مانع بعد الحج، لكن عندما يريد السفر لا بد من الوداع؛ لأنه «أمر ﷺ أن يكون آخر عهدهم بالبيت إلا أنه خفف عن المرأة الحائض»^(١).

(١) أخرجه البخاري برقم (١٨١٦)، ومسلم برقم (١٢٠١).

فأيام التشريق كلها خير والله الحمد، وإن أراد أن يبقى ليلة الثالث عشر ويرمي الجمار في اليوم الثالث عشر بعد الظهر فهذا أفضل، وهو الذي فعله النبي ﷺ لكن من تعجل فلا حرج بالشرطين المذكورين، أن يرمي الجمار ابتداءً من الزوال، وأن يخرج من منى قبل غروب الشمس، أما إذا لم يرم الجمار، بأن غربت الشمس وهو لم يرم الجمار فلا يتعجل، أو رمى الجمار لكنه لم يرحل من منى حتى غربت الشمس، هذا لا يرحل ويلزمه المبيت لأنه لم يتعجل.

فهذا هو جملة ما يفعل في هذه الأيام المباركات التي نوه الله بشأنها قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أما الأيام المعلومات فهي عشر ذي الحجة كما قال تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ [الحج: ٢٨]. الأيام المعلومات هي عشر ذي الحجة، وأما الأيام المحدودات فهي أيام التشريق، وكلها أيام خير وبركة وذكر لله - عز وجل -، وكلها ينتفع فيها المسلمون بالطاعة سواء كانوا حجاجاً أو غير حجاج، المسلمون في بقاع الأرض يشاركون في الأجر.

نسأل الله - عز وجل - أن يوفق الجميع لصالح القول والعمل وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.



٢٢- درس في شرح حديث خطبة النبي ﷺ في اليوم الحادي عشر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على عبده
ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد:
فإن النبي ﷺ خطب في هذا اليوم خطبة بليغة ذكّر فيها الناس، وبين لهم قواعد
الإسلام، ومن جملة ما قال عليه الصلاة والسلام: «أي يوم هذا؟» قالوا الله ورسوله
أعلم، فسكت حتى ظنوا أنه سيسميه بغير اسمه، ثم قال: «أي شهر هذا؟» قالوا:
الله ورسوله أعلم، فسكت ﷺ حتى ظنوا أنه سيسميه بغير اسمه، ثم قال: «أليس
هذا اليوم الأوسط من أيام التشريق؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «أليس هذا
الشهر شهر ذي الحجة؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «أليست البلد مكة؟»
قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم
كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا ألا هل بلغت»^(١).

فهذه خطبة عظيمة، أعلنها رسول الله ﷺ في أصحابه، في البلد الحرام والشهر
الحرام، وفي أيام التشريق، ذكر فيها ﷺ أن الله حرم على المسلمين دماءهم، فلا
يجوز لأحد أن يعتدي على حياة أحد بالقتل؛ لأن هذا من أعظم الظلم والعدوان،
قال الله جل علا: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]. وقال سبحانه وتعالى
عن اليهود: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ أي في التوراة ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ
بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾
[المائدة: ٤٥]. وقال سبحانه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كُتِبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ

(١) أخرجه مسلم برقم (١٦٧٩).

قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ [المائدة: ٣٢]. فلا يجوز الاعتداء على دماء الناس بالقتل، أو على أبدانهم بالضرب، أو على أعضائهم بالقطع أو الجناية، قال ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه»^(١)، وقد جعل الله في القتل العمد عقوبتين؛ عقوبة عاجلة وعقوبة آجلة، أما العقوبة العاجلة فهي القصاص ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨]. ومعنى كتب: يعني وجب وفرض وهذا من باب العدل بين الناس وحماية أنفسهم وحماية حياتهم من العدوان، قال عليه الصلاة والسلام: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(٢)، الثيب الزاني يرجم حتى يموت، والثيب هو: الذي سبق له أن وطئ امرأته بنكاح صحيح، لأنه عرف قيمة العرض وقيمة الحرمه، فهذا يرجم بموجب الحكم الشرعي، وينفذ ذلك فيه ولي أمر المسلمين، والنفس بالنفس وهو: القصاص. والتارك لدينه وهو: المرتد عن الإسلام. هؤلاء يقتلون، أما من عداهم فلا يجوز قتل مسلم؛ لأن قتل المسلم بغير حق من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله - عز وجل -، والعقوبة الآجلة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]. نسأل الله العافية.

وأعراضكم، والعرض: هو ما يقبل المدح والذم من الإنسان، فيحرم الكلام فيه بالغيبة أو النميمه أو بالقذف أو بالشتم أو بالسب، لأن هذا اعتداء على أعراض الناس، وأشدّه القذف - والعياذ بالله -، والقذف هو: الرمي بالفاحشة، أي: بالزنى أو بالسواط، بأن يقال: فلان زنى أو فلان فعل اللواط، أو يا زانٍ أو يا لوطي هذا

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٨٧٨)، ومسلم برقم (١٦٧٦).

قذف، وقد جعل الله في القذف عقوبتين عقوبة عاجلة وهي الجلد: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤ - ٥]. وعقوبة آجلة في الآخرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣ - ٢٥]. ليس كلاماً يقال وينتهي وتشفى من تبغضه أو بينك وبينه خصومة تشفى منه بالقذف، المسألة محفوظة وهناك عدالة إلهية، لو أفلت منها القاذف في الدنيا لم يفلت منها في الآخرة. فعلى المسلم أن يحترم أعراض المسلمين.

كذلك الغيبة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]. وقد بينها النبي ﷺ بقوله: «هي ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: يا رسول الله أفرأيت إن كان في أخي ما أقول. قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»^(١)، وليس ذلك من إنكار المنكر، فالغيبة هي المنكر نفسه؛ لأنه لا يترتب عليها فائدة، أما النصيحة فهي مطلوبة، إذا رأيت على أخيك عشرة أو زلة أو نقيصة في دينه، فإنه يجب عليك مناصحته سرّاً، بينك وبينه مع الاحترام ومع الكلام الطيب، تنصحه وتبين له، وأما الكلام فيه وهو غائب في مجالس الناس، فهذا هو المنكر وليس من إنكار المنكر، إلا إذا كان ذلك على وجه إبلاغ من يأخذ على يده ويمنعه من جرمة.

كذلك النميمة وهي: الوشاية بأن يمشي بالنميمة يجيء هذا ويقول: (قال فيك فلان كذا وكذا)، ثم يذهب إلى الآخر ويقول: (قال فيك فلان كذا وكذا)، فالنميمة هي نقل الحديث بين الناس على وجه الوشاية فيما بينهم، والنميمة من كبائر

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٨٩).

الذنوب، قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ حَلَاْفٍ مَّهِينٍ﴾ هَمَزٌ مَشَاءٌ يَتَمِيمٌ ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ﴾ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴿﴾ [الفلم: ١٠ - ١٣]. والنمام من يمشي بالنميمة، وقد مر النبي ﷺ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان»، فقد أطلعه الله - عز وجل - على الميتين في القبرين أنهما يعذبان من أجل البيان للأمة، وهذا من معجزات الرسول ﷺ أَنَّ الله يطلعه على شيء من الغيب، ومن الغيب أحوال الموتى في القبور، هذا من الغيب، الناس يمرون على القبور ولا يدرون أن أصحابها يعذبون، والرسول ﷺ علم ذلك فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، بلى إنه كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة»، هذا الشاهد من الحديث «وأما الآخر فكان لا يستتر من البول»^(١)، يعني: يتساهل في البول يصيب جسمه ويصيب ثوبه ولا يستنجي ولا يستجمر من البول، لأن البول نجاسة، فإذا تبول الإنسان فإنه ينشف المخرج ويستنجي بالماء أو يستجمر بالحجارة، وإذا أصاب البول ثوبه أو بدنه فإنه يغسله ويتطهر لصلاته.

وكذلك حرمة مال المسلم فالله - جل وعلا - حرم الاعتداء على أموال الناس بغير حق، لأنها ملكهم لا يجوز الاعتداء عليها بغصب سواء كانت أرضاً أو غير ذلك، قال ﷺ: «من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه طوقه في سبع أرضين يوم القيامة»^(٢)، ولعن رسول الله ﷺ الذين يغيرون منار الأرض^(٣)، وهي المراسيم التي بين الأملاك؛ لأن أموال الناس محترمة لا يجوز الاعتداء عليها، أو الاعتداء بالسرقة فالذي يسرق تقطع يده ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

وكذلك أخذ أموال الناس بالغش، فالذي يغش في البيع والشراء ويحلف بالكذب

(١) أخرجه البخاري برقم (٢١٨)، ومسلم برقم (٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٤٥٢)، ومسلم برقم (١٦١٠).

(٣) أخرجه مسلم برقم (١٩٧٨). بلفظ: «... ولعن الله من غير منار الأرض».

من أجل أكل أموال الناس، هذا لا ينظر الله إليه يوم القيامة، ويلقى الله - عز وجل - وهو عليه غضبان، كما صح ذلك في الحديث عن رسول الله ﷺ.

وكذلك الذي يأخذ أموال الناس بالحرابة، فالذي يقطع الطريق على الناس ويعوق السبل وينهب الأموال بالقوة هذا من المفسدين في الأرض ومن المحاربين لله ولرسوله، ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣]. هذه عقوبتهم، يعتدون على الناس بالقوة، أو يسطون عليهم في البيوت، أو في الدكاكين بالسلاح، أو يتعرضون لهم في الطرقات، في البر ويقطعون السبل ويعوقون التجارة والمنافع بين الناس، يخوفون الأمنين، هؤلاء لهم عقوبة قاسية تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، تقطع يده اليمنى من مفصل الكف، وتقطع رجله اليسرى من مفصل القدم، لأن الرجل فيها كعبان، الكعب الذي يقطع منه وهو ما تحت معقد الشراك يفصل بين القدم وبين العقب، وتقطع القدم ويبقى له العقب فقط، يمشي عليه والكعب الثاني العظمان الناثان في أسفل الساق، هذا هو الذي ذكره الله في الوضوء ﴿وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]. والمراد بالكعبين هنا العظمان الناثان في أسفل الساق، فتقطع يد المحارب من مفصل العقب، ويبقى بلا يد ويسلا رجل، عقوبة له على جريمته النكراء.

ومن ذلك الذين يتعرضون للحجاج عند الجمرة، وفي المطاف وينشلون ما معهم في جيوبهم أو في حزاماتهم التي يشدونها على وسطهم، يأتي مجرم وينقب الجيب أو الحزام ويأخذ ما فيه، هذا إذا مكن الله السلطة منه فإنه تقطع يده لأنه سارق، مجرم.

وكذلك التعرض للناس في تجمعاتهم في الأسواق أو في المساجد لينشل ما معهم، هذا يقبض عليه وتطبق عليه العقوبة، هذا في الدنيا، وفي الآخرة جزاؤه

عند الله - سبحانه وتعالى - ، إذا لم يتب أما إن تاب ، تاب الله عليه .

فهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام في حماية الدماء وحماية الأعراض وحماية الأموال ، فإذا أمن الإنسان على هذه الثلاث ، أمن على دمه وأمن على عرضه وأمن على ماله عاش كريماً مطمئناً ، وهذا ما يريد الإسلام أن يعيش المسلمون في أمن واطمئنان ، حتى الكفار إذا كانوا في بلاد المسلمين بإذن منهم فلم يمسوا المسلمين وعليهم ما على المسلمين ، لا يجوز الاعتداء عليهم إذا كان بيننا وبينهم عهد أو دخلوا بلادنا بأمان فلا يجوز لنا أن نعتدي عليهم ونقول : هؤلاء كفار ، هذا في الحقيقة اعتداء على الإسلام ، وهذا في الحقيقة خيانة للإسلام ، فلا يجوز الاعتداء عليهم وفاء بالعهد ووفاء بالأمان ، قال ﷺ : « من قتل معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله لم يرح رائحة الجنة »^(١) ، فإذا كان هذا مع الكفار ، فكيف بالمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله وآمنوا بالإسلام ؟ فلا يجوز الاعتداء عليهم لأن الله أمنهم فقال : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٢] .

فالذي يعتدي على أمنهم فإنه يعتدي على عهد الله - سبحانه وتعالى - ، والله له بالمرصاد حتى لو أفلت من عقوبة الدنيا فلن يفلت من عقوبة الآخرة ، فإذا سلم من إقامة الحد فقد سلب الله عليه عقوبات أخرى في الدنيا ، وفي الآخرة أشد إذا لم يتب إلى الله - عز وجل - .

فعلى المسلم أن يتقي ربه - عز وجل - ويجتنب حرمات الله ويعظمها ولا يعتدي على الناس في دمائهم ولا في أعراضهم ولا في أموالهم ، بعض الناس قد يعظم الدماء فلا يعتدي على دماء الناس ويعظم الأموال ، لكنه يتساهل في الأعراض ، ويعتبر هذا من إنكار المنكر ويتكلم في الناس بالغيبة والنميمة ، وهذا أشد من الأموال ، لأن المال يأتي وإذا ذهب له عوض وله خلف لكن العرض إذا ذهب ليس

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤١٩) ، بلفظ : « من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً » ، والترمذي برقم (١٤٠٣) .

له خلف، ولهذا يقول الشاعر:

أصون عرضي بمالي لا أدنسه لا بشارك الله بعد العرض في المال
أحتال للمال إن أودى فأجمعه ولست للعرض إن أودى بمحتال

هذا وبالله التوفيق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين.



٢٣- درس في بيان عبادات الحج التي هي من ذكر الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ هذه الأيام المحدودات هي أيام التشريق، يضاف إليها يوم العيد، تكون أربعة أيام، ثلاثة أيام، أيام التشريق ويوم العيد، يوم الحج الأكبر.

أما الأيام المعلومات المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ [الحج: ٢٧ - ٢٨]. فالمراد بها عشر ذي الحجة، إذا تواصلت الأيام المعلومات مع الأيام المحدودات، وتكون كلها أيام ذكر لله سبحانه وتعالى.

وقال: ﴿أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ تخفيفاً على الناس، حتى يخف على الناس أمرها من جهة الصبر على الطاعة وأداء المناسك والاطمئنان؛ لأن بعض الناس يتضايق ويستعجل في أداء المناسك ويسرع فيها لأن الشيطان يحثه على ذلك، وهو جاء من بعيد يريد الخير ويريد الأجر والثواب، فيجب عليه أن يطمئن؛ لأنه في خير وفي نعمة.

فالصلاة الواحدة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة، والطاعات والمناسك والعبادات لا يعلم أجرها إلا الله - سبحانه وتعالى - . والحج المبرور ليس له جزاء

إلا الجنة، قال ﷺ: «من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»^(١)، خيرات كثيرة وعظيمة فلماذا لا يطمئن المسلم في هذه الأيام ويحمد الله ويشكر الله.

قد أمر الله - سبحانه وتعالى - عباده الحجاج، وحتى غير الحجاج، أن يذكروا الله في هذه الأيام، لكن الحجاج يذكرون الله بأداء مناسك الحج، وغير الحجاج يذكرون الله بالتكبير أدبار الصلوات الخمس مع الجماعة، يكبرون ويكثرون من التكبير في أدبار الصلوات الخمس مع الجماعة. وهناك ذكر واجب، وهناك ذكر مستحب؛ الذكر الواجب يكون بأداء الفرائض والواجبات كالصلوات الخمس، وأداء زكاة الفطر، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، وسائر الواجبات فإنها من ذكر الله - عز وجل -، ذكر قولي وذكر فعلي، وهناك ذكر مستحب وهو الطاعات غير الواجبة من قولية أو فعلية، وكل الأعمال الصالحة وكل العبادات فإنها من ذكر الله عز وجل، والله عز وجل يقول: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. ويقول: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. ويشني على أولي الأسباب ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وذكر الله في هذه الأيام المعدودات يشمل أشياء شرعها الله في هذه الأيام. أولاً: يكون ذكر الله بالنزول في منى هذه الأيام، كما نزل النبي ﷺ فيها وأن يبقى فيها ليلاً ونهاراً، ويقاؤه النهار مستحب، وفي الليل واجب، وكونه يمضي الوقت في منى هذه الأيام أفضل له من أي عمل آخر، لكن نرى بعض الناس لا يصبرون على البقاء حتى ولو وجدوا فيها منازل يذهبون ويستأجرون غرفاً وشققاً مؤثثة ومبردة ومرفهة، ويحرمون أنفسهم من البقاء في منى، وما يجدونه من الحر فيها ومن الضيق فيها فهو في سبيل الله - عز وجل -؛ لأن الحج جهاد، فلماذا يحرمون أنفسهم من

(١) أخرجه البخاري برقم (١٨١٩، ١٨٢٠)، ومسلم برقم (١٣٥٠).

هذا الأجر؟ لا نقول إن سكنهم في العزيزية وفي الشقق مُحَرَّمٌ، لكن نقول: فوتوا على أنفسهم أجراً كثيراً، جاؤوا من أجله، ما جاؤوا من أجل الرفاهية والنزهة، وإنما جاؤوا للعبادة، فلماذا لا يصبرون على منى وحرها وما فيها من ضيق، وهي أيام معدودات ليحصلوا على أجر عظيم. والحج جهاد ليس نزهة وفرجة.

فالجهد: بذل الجهد في طاعة الله - سبحانه وتعالى -، فالبيت في منى والبقاء فيها هذه الأيام هو من ذكر الله وعبادة الله - عز وجل - . ومن لم يحصل على منزل في منى، فإنه ينزل في طرف الحجاج خارج منى، لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

ثانياً: وَمِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْمَعْدُودَاتِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ فِي مَنَى، كما فعل النبي ﷺ فإنه أقام في منى هذه الأيام وصلى فيها الصلوات الخمس، في كل يوم وليلة، يقصر الصلاة الرباعية الظهر ركعتين والعصر ركعتين والعشاء ركعتين، ولا يجمع بين الصلوات، بل هو قصر بلا جمع؛ لأن الحاج مقيم والجمع إنما يحتاج إليه لمن جد به السير أو المريض الذي يحتاج إلى الجمع، أما المقيم فإنه يصلي صلاة مسافر لكن لا يجمع، بل كل صلاة في وقتها كما فعل النبي ﷺ.

ثالثاً: وَمِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ: رمي الجمار، فرمي الجمار ذكر لله - عز وجل -، كما قال ﷺ: «إِنَّمَا جَعَلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَرَمِي الْجِمَارِ لِذِكْرِ اللَّهِ»^(١)، فرميك للجمار ذكر لله وعبادة لله، ليس هو رجماً للشيطان كما يزعم بعض العوام، إنما هو ذكر لله؛ لأن الله أمرك بهذا والرسول ﷺ فعل هذا، وأنت تتابع الرسول، فهذا ذكر لله - عز وجل -، لا شك أن الشيطان تغيطه كل عبادة، ومنها رمي الجمار، فهو يغطا من العبادات، ولكن ليس القصد من رمي الجمار رمي الشيطان، وإنما القصد عبادة الله وذكر الله - عز وجل -، ولهذا تكبر مع كل حصاة، تقول: الله أكبر، فإذا قلت: الله أكبر ورميت

(١) أخرجه أبو داود برقم (٩٠٢)، والترمذي برقم (١٨٨٨)، وأحمد برقم (٢٤٣٥١).

الحصاة فقد ذكرت الله بالقول وبالفعل.

ففي يوم العيد ترمي جمرة العقبة ابتداءً من منتصف الليل، ليلة النحر إلى أن تغرب الشمس، كل هذا وقت ترمي فيه جمرة العقبة بسبع حصيات ولا ترميها بأكثر من ذلك، لأن رسول الله ﷺ بين أنها تُرمى بسبع فقط فلا تزدد عليها، وأيضاً ترميها بحصيات صغار، كما رماها النبي ﷺ وقال: «خذوا عني مناسككم»^(١)، وأما في الأيام الثلاثة الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، فإنها ترمى - الجمار الثلاث - كل واحدة بسبع حصيات، فأنت عبد تمثل أمر الله - سبحانه وتعالى - فترمي الجمار الثلاث يوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، كل واحدة بسبع حصيات، لا ترمي إلا في وقت محدد، وهو إذا زالت الشمس يبدأ الرمي، ويستمر إلى غروب الشمس، فالرمي يبدأ بعد دخول وقت الظهر، كما رماها النبي ﷺ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. والنبي ﷺ قال: «خذوا عني مناسككم»، وقد رمى في الأيام الثلاثة بعد الزوال، فلو كان الرمي جائزاً قبل الزوال لبين ذلك لأمته ولم يتركه بدون بيان، وقد جاء من يقول: إنها ترمى ضحى، فنقول: لا لسمع ولا طاعة، لا نرميها ضحى إنما نرميها بعد الظهر. ويستمر الرمي المختار إلى غروب الشمس فإذا لم ترم في النهار جاز أن ترمي بعد غروب الشمس، لأن المساء داخل فيما بعد الزوال، فترميها بعد الغروب، لأن النبي ﷺ رخص للرعاة أن يرموا ليلاً، فدل على الجواز بعد الغروب، وأما قبل الزوال فلم يرخص لأحد لا الرعاة ولا غير الرعاة أن يرموا ضحى في أيام التشريق.

رابعاً: وكذلك من ذكر الله في هذه الأيام ذبح الهدى، سواء كان هدي تطوع أو هدي نسك، كهدي التمتع والقران، يذبح في هذه الأيام يوم العيد وثلاثة أيام بعده، من مغيب ليلة الرابع عشر ينتهي وقت الذبح، وينتهي وقت الرمي، وتنتهي أيام منى المعدودات، فذبح الهدى في هذه الأيام ذكر الله - عز وجل -، كما قال - تعالى -

(١) أخرجه مسلم برقم (١٢٩٧).

عن الأبل: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعِيرِ اللَّهِ لَكُم فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافً﴾ [الحج: ٣٦]. يعني قائمة معقولة اليد اليسرى، صواف برجليها، لأن هذا أسهل في الذبح وأجهز للذبيحة وأسهل عليها من نحرها وهي باركة، فهذا من ذكر الله - عز وجل -.

الذبح لله عبادة. من ذبح لغير الله فقد أشرك الشرك الأكبر، كالذي يذبح للقبور رجاء نفعها، وأن تدفع عنه الضرر واتقاء لشرها، فالذبح لغير الله يعد شركاً أكبر يخرج من الملة وفي الحديث: «لعن الله من ذبح لغير الله»^(١)، الله - جل وعلا - يقول: ﴿قُلْ إِن صَّلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

والنسك: هو الذبيحة، وكما أن الصلاة لله وحده فلا يُصلى لصنم ولا لقبر ولا لشجر ولا لحجر، كذلك لا يُذبح إلا لله، فذبح التقرب والعبادة لا يذبح إلا لله، قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحَرْ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: ٢]. كذلك قرن النحر مع الصلاة دل على أنه عبادة لا يجوز أن يذبح لغير الله لقصد التقرب إليه أو خوفاً من شره أو طمعاً في نفعه، إنما يذبح على وجه التقرب لله - عز وجل -، وهذا من ذكر الله - عز وجل - في هذه الأيام.

خامساً: وكذلك من ذكر الله في هذه الأيام التكبير المفيد في أدبار الصلوات الفرائض مع الجماعة، فإذا صلى الفريضة مع الجماعة وسلم منها فإذا انصرف الأمام بوجهه إلى المأمومين كبر، وكل يكبر لنفسه: «الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر والله الحمد». طيلت هذه الأيام الأربعة، وهذا من ذكر الله - عز وجل -، من التكبير المفيد في أدبار الصلوات الخمس مع جماعة ذكر الله - عز وجل -.

(١) أخرجه مسلم برفم (١٩٧٨).

إذن فوقت المسلم في هذه الأيام، وفي هذا المكان، مستغرق في جميع العبادات وأنواعها، ومن عبادة إلى عبادة، فهو في خير وفي روضة من رياض الجنة، حيث إن هذه العبادات تربي النفوس وتزكي القلوب وتطهر الأعمال، فهو في خير ممنوع من خير إلى خير واجب أو مستحب في هذه الأيام.

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ما المراد باليومين؟ الحادي عشر والثاني عشر، إذا رمى الجمرات في اليوم الثاني عشر بعد الظهر فله أن يرحل من منى، وبينه مناسكه، فيكون متعجلاً، بشرط أن يخرج ويرحل قبل غروب الشمس.

الشرط الأول: أن يرمي الجمرات ما بين زوال الشمس إلى ما قبل غروب الشمس.

الشرط الثاني: أن يرحل من منى قبل غروب الشمس، أما لو رمى ولم يرحل قبل الغروب لم يكن متعجلاً، ولو نوى التعجل لا يكفي هذا، لا بد من الفعل وهو التعجل، وكذلك لو رحل ولم يرم لا يجوز له ذلك، لا بد من الشرطين.

وإن تأخر ويات ليلة الثالثة عشرة، فهذا أفضل من التعجل لأن النبي ﷺ تأخر ولم يتعجل. فقله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يغلط فيه بعض الناس، فيظن اليومين ابتداءً من يوم العيد فينفر في اليوم الحادي عشر ويقول: أنا تعجلت، بناءً على فهمه غير الصحيح، واليومان هما: الحادي عشر والثاني عشر، ولا يدخل يوم العيد في أيام التشريق وإنما هو يوم مستقل.

بل إن بعضهم إذا وقف في عرفة وطاف وسعى سافر إلى أهله ويقول: الحج عرفة، نعم صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الحج عرفة»^(١)، لكن ليس معناه أن كل مناسك الحج هي الوقوف في عرفة، الوقوف في عرفة ركن من أركان الحج، وأركان الحج أربعة وواجباته سبعة.

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٩٤٩)، والترمذي برقم (٨٨٩)، والنسائي (٢٥٦/٥، ٢٦٤)، والبيهقي (١٥٢/٥، ١٧٣)، والحاكم (٢٧٨/٢).

لكن الرسول ﷺ قال: «الحج عرفة»، يعني: أعظم أركان الحج عرفة، مثل قوله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»^(١)، مع أن الدعاء نوع واحد من أنواع العبادة، لكن لما كان هو أفضل أنواع العبادة حصر العبادة فيه لفضله فقال: «الدعاء هو العبادة»، كذلك «الحج عرفة» أي: هو أعظم أركان الحج، وليس معناه أن من وقف بعرفة انتهى حجه، كما يفهم بعض الجهال والمغالطون، ويذهبون ويتركون بقية أعمال الحج، هذه مغالطة للشرع، ومن العجب أنه جاء إلى مكة من مكان بعيد، وأنفق الأموال وتعب في السفر وتلاعب به الشيطان فأهدر بقية المناسك ورجع، هذا الذي يريده الشيطان، الشيطان يريد أن يفسد عليك العبادة، فلنحذر من هذا العدو، ولنقبل على عبادة ربنا، ولنكمل العبادات، قال الله جل وعلا: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]. وقال جل وعلا: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. وذلك بأداء المناسك في أوقاتها وفي أمكنتها كما شرع الله - سبحانه وتعالى -، لا كما نريد نحن، فلا نكيف العبادات على رغبتنا بل نؤديها كما شرع الله سبحانه وتعالى. فقله تعالى: ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: هذا أكمل أن يبقى في منى ثلاثة الأيام، على هذه العبادات العظيمة، هذا أكمل وأعظم أجراً، وهو الذي فعله النبي ﷺ، لكن الله - جل وعلا - رخص في النفور في اليوم الثاني عشر تخفيفاً على الناس، والله الحكمة في ذلك من أجل أن يتدرج الناس في الرحيل من منى ولا يتزاحموا ويرحلوا في وقت واحد، وقوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ لا إثم على من تعجل بل حجه تام. وما يفهمه بعض الناس أنه إذا أراد أن يتعجل يرمي جمرات اليوم الثالث عشر مع اليوم الثاني عشر، مع أن اليوم الثالث عشر لم يأت بعد فلا ترم جمراته مقدماً.

ثم قال: ﴿لَعَنَ اتَّقَى﴾ لا إثم على من تعجل أو تأخر لمن اتقى الله - عز وجل -، عمل بتقوى الله لأداء أوامره واجتناب نواهيه طمعاً في ثوابه وخوفاً من

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٤٧٩)، والترمذي برقم (٢٩٦٩)، وابن ماجه برقم (٣٨٢٨).

عقابه، سمي ذلك تقوى لأنه يقي من عذاب الله، العبرة ليس في صورة العمل، التعجل أو التأخر، العبرة بالتقوى، تقوى القلوب.

ثم قال: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ أي: تيقنوا أنكم إليه تحشرون يوم القيامة، كل الخلائق تحشر يوم القيامة الأولون والآخرين ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتَكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨]. ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ [مجموعون إلى ميقت يوم معلوم] [الواقعة: ٤٩-٥٠]. يجتمع أول الخلق وآخر الخلق في صعيد واحد، يحشرون ويجمعون في صعيد واحد.

أنتم رأيتم تكتل الناس، والزحام الشديد، وما فيه من الخوف، وما فيه من الترويعات، حشر يوم القيامة أشد، تذكر الحشر الأكبر، هذا حشر مصغر، يذكر بالحشر الأكبر، الذي هو حشر يوم القيامة، فاستعدوا لهذا الحشر بالعمل الصالح، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. كل مسلم يعتقد أنه يحشر إلى الله ولا ينكر البعث إلا الكافر، لكن الشأن الاستعداد لهذا الحشر، أما مجرد أنك تعتقد وتؤمن ولا تعمل فهذا لا ينفعك شيئاً.

هذا وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.



٢٤- درس في تفسير قوله تعالى:

﴿فَإِذَا قُضِيَتْكُمْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ...﴾ الآية

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْكُمْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ۚ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آتَيْنَاكَ لَهْمَ نَصِيبٍ مِمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢].

هذه الآيات في سياق الآيات النازلة في أحكام الحج في سورة البقرة، وفيها يقول الله سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْكُمْ مَنَاسِكُكُمْ﴾ قضيت: أي فرغتم من أداء المناسك لأن القضاء يطلق عدة إطلاقات منها الفراغ فقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْكُمْ﴾ يعني: فرغتم من أداء المناسك مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ [الجمعة: ١٠]. يعني: فرغ من أدائها، ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أتبعوا أداء المناسك بذكر الله - سبحانه وتعالى - بالتسبيح والتلهيل والتكبير والاستغفار والدعاء والتضرع إلى الله - سبحانه وتعالى -؛ لأن العبادات تتبع بالذكر كما في الصلاة ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَاذْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وَفُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]. ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]. فيتبع المسلم أداء الفرائض بالذكر ولا يتبعها بالغفلة والانشغال عن طاعة الله، أو يقول أنا أديت الفريضة ويكفي، بل يتبعها بذكر الله - سبحانه وتعالى -.

ولهذا فالصلوات الخمس تتبع بالذكر بعد السلام، كما ثبت ذلك في السنة، أنها

تتبع بالاستغفار والتهليل، وتتبع أيضاً بالتسبيح والتحميد والتكبير على حسب ما ورد في السنة، فالإنسان ينبغي له أن يكون دائماً مع ذكر الله، إما بأداء واجب أو فعل مستحب، أو ذكر الله بلسانه بالاستغفار والتسبيح والتهليل والتكبير، وينبغي أن يكون دائماً متعلقاً بذكر الله - سبحانه وتعالى - لا يغفل عن الله.

فقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]. فكما أن الإنسان يتعلق بوالديه، ودائماً يذكر والديه لإحسانهما إليه فإن المحسن الأعظم هو الله - جل وعلا -، ينبغي أن يتعلق بالله أكثر مما يتعلق بالوالدين، وذلك أن الطفل إذا مسه شيء من الضر، أو من الألم، أو من الخوف ينادي والديه: يأبت يا أمي. فكذلك المسلم ينادي ربه - سبحانه وتعالى -، كلما وقع في كربة، كلما وقع في شدة، كلما وقع في مظلمة، أو كلما عبد الله - جل وعلا - وأدى فرائضه، قلبه متعلق بربه - سبحانه وتعالى -، ومن ذلك الحجاج إذا أدوا المناسك فيتبعون ذلك بذكر الله ويكون أشد من ذكرهم لأبائهم.

قيل: المعنى أشد من ذكر الأطفال لأبائهم إذا وقعوا في شدة أو وقعوا في ضيق. وقيل: معنى ذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا فرغوا من الحج فإنهم يتفاخرون بأبائهم، كل واحد يذكر مآثر آبائه في موسم الحج أمام القبائل، فيعتبرون الحج موسماً لمدح آبائهم وأجدادهم، وتفاخرهم بقبائلهم، والله - جل وعلا - أبطل هذه العادة الجاهلية وأمر المسلمين بأن يذكروا الله بدل أن يذكروا آبائهم، المسلمين يستبدلون ذلك بذكر الله - سبحانه وتعالى - فهذا فيه استبدال ما كان عليه أهل الجاهلية من استغلال موسم الحج للدعايات السياسية، أو الدعايات القبلية كل يذكر قبيلته أو كل يذكر دولته أو حزبه الذي ينتسب إليه، هذا من عمل الجاهلية. الحج لم يشرع لذلك، إنما شرع الحج لذكر الله - سبحانه وتعالى -، كما في الحديث «إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار لذكر الله - عز وجل»^(١)، ولم يجعل الحج

(١) أخرجه أبو داود برقم (٩٠٢)، والترمذي برقم (١٨٨٨)، وأحمد برقم (٢٤٣٥١).

موسماً للتفاخر وذكر الأمجاد، لأن هذا من أمور الجاهلية التي أبطلها الإسلام. ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ الله - جل وعلا - يجب أن يذكر أكثر من ذكر الآباء، وأكثر من ذكر الأقارب، لأن النعم كلها منه - سبحانه -، وهو ربنا، فيجب أن تتعلق قلوبنا به، وأن تلهج ألسنتنا بذكره، وتسيحه وتهليله ودعائه والتضرع إليه، هكذا ينبغي أن يكون المسلم.

ثم قال جل وعلا: ﴿فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ هذا أيضاً من عادات الجاهلية أنهم كانوا إذا فرغوا من الحج يدعون بأمر الدنيا، اللهم اجعله عام خصيب، وعام خير وعام كلاً ومطر؛ لأن همهم الدنيا، فيطلبون من الله أن يجعل هذا العام عاماً مخصباً، وأن يعطيهم من مصالح الدنيا، ولا يطلبون الآخرة، أو يقولون: اللهم اغفر لنا، اللهم ارحمنا، اللهم أدخلنا الجنة وأعدنا من النار، ما يذكرون الآخرة إنما يطلبون الدنيا ويدعون الله بمصالح دنياهم، يتعجلون في دعائهم الدنيا لا يدعون الله في أمور الآخرة، هذا من أمور الجاهلية ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أي: ما له في أمور الآخرة من نصيب، ما له في الجنة وطلب الجنة من نصيب، لا يطلب الجنة والنجاة من النار، إنما يطلب أمور الدنيا، فهذا مما يجعل المسلم لا يقتصر في دعائه على أمور الدنيا، وإنما يطلب الدنيا والآخرة.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ يسأل الله من خير الدنيا والآخرة، لا مانع أنك تطلب الرزق، وتدعو الله أن يرزقك وأن يعطيك، وتدعو الله بنزول المطر، لكن لا تقتصر على هذا، بل تدعو بهذا وتدعوا بأمر الآخرة من باب أولى، فالمؤمنون جمعوا في دعائهم بين خير الدنيا والآخرة، واختلفت عبارات المفسرين في حسنة الدنيا وحسنة الآخرة، منهم من يقول: حسنة الدنيا الزوجة الصالحة، وحسنة الآخرة الجنة، ولكن الآية عامة فتطلب من الله خير الدنيا والآخرة، والله - جل وعلا - غني كريم، قريب مجيب، لا يغضب، ولا يكره أنك تسأله، وتكثر السؤال، ولا تتعاطم شيئاً تطلبه من الله. فالله - جل وعلا -

ليس ببخيل، ويحب منك أن تسأله، وأن تعظم السؤال، وتطلب ما تريد من الله - جل وعلا -، لأنك تسأل غنياً كريماً مجيباً لا يتعاضمه شيء أعطاه، وكلما أكثر من السؤال زاد قربك من الله ومحبة الله لك، فأكثر من الدعاء.

﴿وَفَنَّا عَذَابَ النَّارِ﴾ هذا المهم هذا دعاء المسلمين، أنهم يستعيذون من النار، أما أهل الجاهلية فلا يأتي ذكر النار على ألسنتهم ولا على قلوبهم، لأنهم لا يؤمنون بالبعث والحساب، وإنما يتعلقون بأمور الدنيا، أما أهل الإيمان فهم يسألون الله من خير الدنيا والآخرة، وأعظم ما في الآخرة النجاة من النار ودخول الجنة ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فالمسلم دائماً يتذكر الآخرة، ويتذكر الجنة والنار، ولا يغفل عنهما، بل يكثر من سؤال الله النجاة من النار ودخول الجنة، والله - جل وعلا - قريب مجيب. والحسج فرصة للدعاء والتضرع، وموسم عظيم، وهو مظنة الإجابة من الله - سبحانه وتعالى -، هذا هو توجيه الرب - سبحانه وتعالى - للحجاج عند نهاية المناسك، أنهم يكثرون من الدعاء ويختمون بالدعاء والاستغفار والتوبة وطلب خيري الدنيا والآخرة، والله - جل وعلا - يحب ذلك منهم وقد أمرهم به، وهو قريب مجيب يعطيهم ما سألوا ويعيذهم مما استعاذوا منه، لكن الشأن في العبد أن يصدق مع الله - جل وعلا -، وأن يدعو الله بقلب حاضر وأن يتخلى عن أكل الحرام، وشرب الحرام، فإن أكل الحرام مهما دعا صاحبه فإنه لا يستجاب له، كما في الحديث: «الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك»^(١).

أيضاً يجب على الحجاج أن يتوبوا إلى الله - سبحانه وتعالى -؛ لأننا كلنا

(١) أخرجه مسلم برقم (١٠١٥).

خطاؤون وخير الخطائين التوابون، فعليسا أن نتذكر ذنوبنا وسيئاتنا ونتوب منها ونستغفر الله منها، ولا أحد يسلم من الذنوب والسيئات، ولكن الشأن في التوبة الصحيحة والاستغفار الصحيح، المصحويين بترك المعاصي وعدم الرجوع إليها، هذا هو المطلوب.

نسأل الله - عز وجل - أن يوفقنا وإياكم لصالح القول والعمل وأن يتقبل منا حجنا وأعمالنا وأن يغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا وسيئاتنا، إنه قريب مجيب وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.



٢٥ - درس في الحث على الاستغفار وذكر الله في ختام المناسك

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ ۚ وَمِنَهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۚ﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٠﴾ [البقرة: ٢٠٠ - ٢٠١].

في هذه الآيات يذكر الله - جل وعلا - ما يختم به المسلم أداءه المناسك في الحج، وذلك بذكر الله - سبحانه وتعالى -، فإن الذكر مشروع في كل وقت وفي كل حال، ولكن يشترع في ختام العبادات أكثر فتختم العبادات بذكر الله - جل وعلا -، ليكون مكملًا لنقصها ويكون زيادة فيها، فالله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وتختم العبادات بذكر الله والاستغفار، فإن الاستغفار من ذكر الله، بل هو من أعظم أنواع الذكر، تختم به العبادات من حج وغيره، والاستغفار معناه: طلب المغفرة، لأن الإنسان وإن أدى العبادة فإنه يحصل منه تقصير فيها، فيحتاج إلى أن يكمل ذلك بالاستغفار عما حصل منه من خلل ونقص، ولذلك كان النبي ﷺ إذا سلم من صلاة الفريضة يقول: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله ثلاث مرات.

والله - جل وعلا - أمر بالاستغفار في آخر الليل في ختام قيام الليل، فإن المسلم إذا قام من الليل وأدى الوتر يختم ذلك بالاستغفار قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۖ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [النار: ١٧ - ١٨]. يقومون من الليل ثم يختمون ذلك بالاستغفار بالأسحار وقت السحر، وأمر الله نبيه ﷺ أن يختم عمره بالاستغفار. قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ﴾. قال بعض المفسرين: كانوا في الجاهلية إذا حجوا وانتهوا من مناسكهم، يقفون ويفتخرون بأبائهم وقبائلهم، كل يمدح قبيلته ويذكر آباءه ومفاخرهم، ويتفاخرون فيما بينهم بعد الحج، فكانهم إنما جاؤا لأجل إظهار مكانتهم ومدح آبائهم وقبائلهم، ما كأنهم جاؤوا لعبادة الله - سبحانه وتعالى -، فيستهزئون اجتماع الناس في هذا الموسم لهذا الغرض، الذي ليس فيه نفع لهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، وإنما فيه العجب والتفاخر والكبر، فالله أمر بدل أن يذكروا آباءهم ومفاخرهم أن يذكروا الله - عز وجل -، الذي هو ربهم وخالقهم والمنعم عليهم بجلال النعم، فهو أحق أن يذكر ويشكر، فالله - جل وعلا - أبدل عادة الجاهلية في ختام المناسك بالمفاخرة، أبدله بذكر الله - عز وجل -، وهذا الاجتماع وهذا الموسم إنما شرع لأجل ذكر الله وشكره والثناء عليه وعبادته، وفي ذلك الخير للناس، ويرجعون مغفوراً لهم كفرت عنهم سيئاتهم، ويختمون عملهم بذكر الله - سبحانه وتعالى -، هذا خير عمل، والله - جل وعلا - شرع لعبادة بعدما يفرغون من حجهم، أن يكثر من ذكر الله - جل وعلا -، ويشكروه على نعمه، ويستغفروه من ذنوبهم وتقصيرهم، هذا هو المطلوب.

وقال البعض الآخر من المفسرين معنى الآية ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ﴾:

أن الطفل معروف عنه أنه إذا احتاج الشيء أو آذاه أحد، أنه يستنجد بآبائه لينصروه؛ لأنه لا يعلم أحداً من الخلق أقرب إليه من آبائه، وهذا شيء معروف عند الأطفال، فالله أمر المؤمنين أن يظهروا ضعفهم لربهم وأن يستغيثوا به ويستجدوه، كما يستنجد الطفل بأبويه لأن حاجتهم إلى ربهم أشد من حاجة الطفل إلى أبويه، وعلى كل الله - جل وعلا - أمر بذكره بعد قضاء المناسك، والإكثار من ذلك، ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾، فينبغي للمسلم أن يلجأ إلى الله - عز وجل - أشد مما يلجأ هذا الطفل إلى والديه.

ثم ذكر - سبحانه وتعالى - أن الناس بعد فراغهم من الحج ينقسمون إلى قسمين: قسم ليس له هم في الآخرة، وإنما يسأل من الدنيا فيطلبون من الله أن يجعله عاماً خصيباً مطراً، ويجعل فيه الخصب لمواشيهم، وأن يرزقهم من المال، ليس لهم هم إلا الدنيا، ولا يذكرون الآخرة ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ﴾ أي: ماله نصيب من الآخرة ولا يذكرها.

والفريق الثاني من الناس الذين وفقهم الله، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ يسألون الله من خيري الدنيا والآخرة، لا يقتصرون على سؤال الآخرة فقط، ولا يقتصرون على سؤال الدنيا فقط، وإنما يجمعون بين طلب الدنيا والآخرة لأنهم بحاجة إلى الدنيا وبحاجة إلى الآخرة، والدنيا مطية الآخرة، فإذا أصلح الله لك دنياك وآخرتك فقد سعدت وقرت عينك، أما إذا نسيت الآخرة واقتصرت على الدنيا فهذه خسارة، والدنيا زائلة وما كتب الله لك في هذه الدنيا سيأتي، وكذلك لا تقتصر على الآخرة وتنسى الدنيا، فأنت بحاجة إلى الدنيا لتستعين بها على الآخرة، وأنت بحاجة إلى الرزق والصحة، بحاجة إلى كل ما ينفعك ويعينك على طاعة الله سبحانه وتعالى ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ١٧٧]. فالمسلم يدعوه ربه لآخرته ولدنياه، يسأل

الله من خيرى الدنيا والآخرة، ولا سيما في هذه الأيام، وفي هذا المكان، وعلى إثر العبادة وأداء المناسك، فإن هذا مظنة قبول الدعاء، فعلى المسلم أن يغتنم هذه الفرصة وأن يكثر من ذكر الله، ومن الدعاء وسؤال الله - عز وجل -، وأن يعترف بتقصيره ولا يقل: أنا أديت المناسك بل يعترف بتقصيره؛ لأنه لا يدري هل تقبل الله منه، ولا يفتخر بحجه، مثل ما يفعل بعض الناس من تلقيه بالحاج فلان، هذا من باب الافتخار وما يدريك أنه حاج، هذا لا يعلمه إلا الله - سبحانه وتعالى -، والله - جل وعلا - يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. ويقول جل وعلا: ﴿فَلَا تَزُكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]. ولكن المسلم يرجو رحمة الله ولا يئأس من روح الله، أما إنه يكل نفسه ويفتخر بعبادته فهذا ربما ييطل ثوابه وربما يرجع بدون شيء، لكنه إذا اعترف بتقصيره واستغفر الله من ذنوبه وذكر الله - عز وجل - وأظهر فقره وحاجته إلى الله فهذا حري أن يرجع بالخير الكثير.

فهكذا ينبغي للمسلمين، وهم الآن في ختام المناسك، ينبغي لهم أن يكثرُوا من ذكر الله - عز وجل -، بالتسبيح والتلهيل والتكبير والتحميد والاستغفار، وأن يهتموا بهذا الأمر العظيم، وإذا كان الذي يعبد الله يحتاج إلى الاستغفار فكيف بالذي يعصي الله ويخالف أمره، هذا يحتاج إلى الاستغفار أكثر، إذا كان العابد المصلي الحاج والمعتمر مأموراً بالاستغفار بعد العبادات، فكيف بالمذنب والعاصي المقصر، فإنه أولى بذلك، ونحن كذلك نحن المذنبون والمقصرون والغافلون، فنحن أولى بطلب المغفرة والعفو عن تقصيرنا، وهذا فيه أيضاً أن الإنسان لا يكمل نفسه، ولا يظن أنه أدى الحج على الوجه المطلوب لكن يرجو ذلك رجاءً، أما أن يجزم أنه أدى الحج على الوجه المطلوب، فهذا غلط وغرور، فهو يرجو ذلك ويخاف من النقص ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. فهذا فيه أن الإنسان لا يكمل نفسه، ولا يزكي عمله، ولا يدعي

الكمال، وإنما دائماً يعتبر نفسه مقصراً في حق الله، وهو كذلك، وهذا أكمل الخلق عبادة لله نبينا محمد ﷺ يقول لربه: «لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(١). فإذا كان الرسول ﷺ لا يحصي ما يجب عليه الله. أي لا يحصي ما يستحق الله من الثناء والحمد والشكر، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]. فإذا كان رسول الله ﷺ لا يحصي الثناء على الله بل هو يعتبر نفسه مقصراً في ذلك، فإن غيره من باب أولى، فعلينا جميعاً وعلى جميع المسلمين أن يحافظوا على دينهم، وعلى عباداتهم وطاعتهم لله، وعليهم أن يكثروا من الاستغفار والتوبة عن سيئاتهم وتقصيرهم في عباداتهم، وأن لا يغفل المسلم عن ذكر الله على كل حال بالقلب واللسان والعمل، دائماً يذكر الله عز وجل ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا اللَّهُ كَثِيرًا وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأحزاب: ٣٥]. ومن علامات المنافقين أنهم لا يذكر الله إلا قليلاً، فقلة ذكر الله علامة على النفاق، والإكثار من ذكر الله علامة على الإيمان، فيكثر المسلم من ذكر الله - عز وجل -، بدل أن يشغل نفسه بالقليل والقال والضحك والغفلة، لا يغفل عن ذكر الله - عز وجل -، هذا هو الشأن في المسلم لاسيما الحجاج الذين من الله عليهم بأداء هذه المناسك، والوقوف في هذه المشاعر، والطواف بالبيت العتيق، والسعي بين الصفا والمروة.

من الله عليهم بذلك، عليهم أن ينطلقوا من هذا الحج وهم في أحسن حال من جهة عبادتهم لله - عز وجل -، تائبين من ذنوبهم وتقصيرهم، مستمرين على طاعتهم، لا يطيعون الله في الحج فقط، وإذا انصرفوا إلى بلادهم عادوا إلى السوء، فيكون من الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥ - ٢٠٦]. بل إذا انطلق من الحج

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٨٦).

يَكُنْ مُؤْمِنًا ذَاكِرًا لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، ناصحاً لنفسه ولإخوانه المسلمين يكون قد تربي

